التصوُّف: مظاهره وتجلِّياته في مصر في سياحتنامه للرحَّالة التركيّ أوليا جلبي

د. أمين يوسف عودة*

تاريخ وصول البحث: 2012/3/28م تاريخ قبول البحث: 2012/11/8م

ملخص

ترمي هذه الورقة إلى استقراء واقع التصوُّف والطرق الصوفيَّة عامةً، وفي مصرَ خاصةً، ورصد آثاره في حياة المصريين الدينيَّة والاجتماعيَّة، إبَّان حكم الدولة العثمانية في القرن الحادي عشر الهجري، ورسم صورةٍ واضحة المعالم لمجتمع التصوف ومظاهره، على النحو الذي وصفه الرحَّالة أوليا جلبي في رحلته.

وستعنى الورقة بمتابعة مشاهدات الرحَّالة العِيانيَّة ورواياته السماعية، ومحاورة نماذج منها وتحليلها؛ سعيًا إلى محاولة الوقوف على المخيال الشعبيّ المُستدخلِ في الوقائع التاريخيَّة. ولعلَّ المطَّلعَ على غزارة ما كتبه هذا الرحَّالةُ عن التصوُّف والطرق الصوفيَّة وطقوسِهم وشعائرهم، سيدرك مدى تغلغل هذا الجانبِ في نفوس الناس، وانتشاره بين الخاصَّة والعامَّة.

وتتجلّى القيمة المعرفية والتاريخية لما سجَّله أوليا جلبي في رحلته، في أنَّ تفاصيل تاريخ التصوف في مصر إبَّان العصر العثماني يكاد يكون شبه مجهول، ومن غير اليسير أن تجد دراساتٍ معاصرةً تلمُّ بالفترة التاريخية التي وثَّقها أوليا جلبي، اللهم سوى قليل من الإشارات التي لا تحيط بحقيقة واقع التصوُّف وطرقه وممارساته.

Abstract

This paper aims to exploring Sufism and the Sufi brotherhood, particularly in Egypt, by tracing their effects on the religious and social lives of Egyptians during period of Ottoman rule in the eleventh century AH (seventeenth century AD). An attempt is made to present a clearly defined picture of the Sufi community and its expressions in Egypt based on the descriptions given by explorer Evliya Çelebi in his travelogue. The research discusses and analyzes samples of the writer's own eyewitness accounts as well as the oral accounts he recorded in an attempt to identify the manner in which Sufism presented itself to the popular imagination based on a record of historical events. Those who are acquainted with the abundance of this explorer's writings on Sufism, the Sufi brotherhood, their rituals, and their cultic practices will appreciate how deeply Sufism had penetrated into popular consciousness and the degree to which it had spread among the elite and the general populace alike. The historical and academic value of what Evliya Çelebi recorded in his travelogue becomes apparent when one realizes that the details of the history of Sufism in Egypt during the Ottoman period. Apart from a few scattered references whichare insufficient to give us a true picture of Sufism, its brotherhoods, and their practices, few modern studies of Sufism during this historical period are available. Therefore, Evliya Çelebi has done us a great service by making his exhaustive account available to modern scholars of the history of Sufism.

* أستاذ مشارك، جامعة آل البيت، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها.

تمهيد:

عاش الرحالة التركيُّ أوليا جلبي في القرن الحادي عشر الميلاديّ. وكان ممَّن يعشقون حياة الترحال والتنقُّل، وقد ساعده على ذلك تكوينه الشخصيُّ الذي كان يتَّسم بالذكاء والفطنة والروح المرحة، وتكوينه الثقافيُّ الموسوعيُّ الذي نهل من القرآن الكريم حتَّى استظهره، ومن علوم العربيَّة والفارسيَّة، والمدوَّنات التاريخية وكتب الرحلات، وأشعار سعدي الشيرازيّ (ت691 أو 694هـ/1291م أو 1294م)، وجلال الدين الروميّ (ت672هـ/1273م)، وسوى ذلك من معارف السابقين ومعارفِ عصره.

وَلد أوليا جلبي بن محمَّد ظلي عام 1020هـ/1611م في عائلةٍ رفيعة المكانة في الدولة العثمانية، فقد كانت والدته أختًا للصدر الأعظم، وكان والده يعمل بمعيَّة السلطان سليمان القانوني (ت 974هـ/ 1566م)، وخدم في بلاط عشرةٍ من السلاطين العثمانيّين، إلى أن توفِّي عام 1058هـ/1648م.

وفي عام 1045هـ/1636م ضمَّ السلطان مراد الرابع (ت 1049هـ/1640م) أوليا جلبي إلى حاشيته، ثمَّ لم يلبث أن التحق بالجيش النظامي برتبة جندي، بيد أنَّ شغفه بالتجوال والتنقُّل جعله يتحوَّل عن الجيش، ويمضي قُدُمًا إلى تحقيق رغبته بالسياحة والسفر. والظاهر أنَّه بدأ أسفاره منذ عام 1041هـ/1631م، واستمرَّت أكثر من وأربعين عامًا، دوَّن في أثنائها عشرة أجزاءٍ، تبيِّن تفاصيل أسفاره التي سجَّل غير قليلٍ منها على شكل يوميَّاتٍ.

جاب أوليا جلبي في أسفاره عددًا كبيرًا من البلاد، شرقًا وغربًا وشمالا وجنوبًا، حيث بدأ تجواله بانتظامٍ في نواحي القسطنطينية ومحيطها، ثمَّ انتقل منها إلى بلاد فارس، والقوقاز، وبغداد، وسوريا، ومكَّة، وفيها أدّى فريضة الحجِّ. وزار فلسطين مرَّتين: الأولى كانت إلى بيت المقدس، والأخرى إلى غزَّة. وارتحل إلى مصر، والسودان، والحبشة، وجنوبي روسيا، والبوسنة، والمجر، وبلاد ألمانيا، والسويد، وبولندا. وآخر وصفٍ ذكره لأسفاره كان لمصر في عام 1089هـ/1678م.(1)

وقد تمَّت ترجمة الجزء الذي خصَّصه لمشاهداته في مصر إلى العربية، وكانت زيارته لها سنة 1082هـ/1672م، ومكث فيها إلى سنة 1090هـ /1680م. والمرجَّح أنَّه توفي بعد سنتين من إتمام هذه الرحلة؛ أي في سنة 1093هـ/1682م.(2)

رحلتاه إلى فلسطين:

وله رحلتان إلى فلسطين ترجمتا إلى العربية، الأولى كانت في أثناء زيارته إلى بلاد الشام عام 1058هـ/ 1648م صحبة الوزير مرتضى باشا الكرجي المعروف بالسلحدار(3)، وكان واليًا على الشام آنذاك. والثانية كانت عام 1082هـ/1671م، في أثناء طريقه إلى الحجِّ.(4) وهما رحلتان قصيرتان جدًّا قياسًا بالجزءِ الكبير الذي أفرده لمصر. وقد وصف في رحلته الأولى بيت المقدس، وحصنه، والمسجد الأقصى وحرمه، والصخرة ومسجدها والمغارة، والمقامات الجديرة بالزيارة في حرمي المسجدين، والأبواب المطلَّة على الطرق العامَّة. ووصف عمود الصراط، وداخل مدينة القدس. وسجَّل إحصاءاتٍ عدديةً لبعض الأماكن الدينية والمدارس والمحاريب والكنائس، والخانات والحمامات، والزوايا الصوفية التي بلغ عددها سبعين زاوية لسبعين طريقة، أكبرها زاوية عبد القادر الجيلاني(5) (ت561هـ/ 1166م)، وأحمد البدوي(6) (ت 675هـ/ 1276م)، والرفاعي(7) (ت 578هـ/ 1182م)، والمولوي(8) (ت672هـ/ 1273م). على أنَّه لم يعن برصد الشعائر المتَّصلة بممارسات الصوفية التعبُّدية وأحوالهم ومناسباتهم.(9)

وفي رحلته إلى غزَّة، وفد إلى حاكمها حسين باشا(10) (ت 1073هـ/1662م) في خان الزيت(11) ونزل عنده، وأثنى على لطفه وكرمه وعلمه. وذكر شيئًا من تاريخ غزَّة القريب إلى عهده، وبعض مناصب أهلها الرسمية، وطرفًا من معالمها، كالحصن وبعض مقتنياته من عنابر للحنطة، ومخازن للأسلحة، ومسجدها الكبير الذي يُسمَّى مسجد الجمعة.

وأحصى ما في غزَّة من منازل ومساجد وأسبلةٍ وحمَّاماتٍ ودكاكين، ووصف سَحْناء أهلها وطبقاتهم وأنواع ألبسة كلِّ طبقةٍ. وذكر تكيَّتين صوفيَّتين تقعان في وسط المدينة.[12]

أهمِّيَّة الرحلة:

تعدُّ رحلة أوليا جلبي مدوَّنة ذات أهميةٍ بالغةٍ؛ لأنّ ّها" تصف العصر الذي عاش فيه، فهي مصدر تاريخي في المكانة الأولى بالنسبة إلى تلك الفترة، وتقدِّم لنا في ذات الوقت وصفًا للبلاد والشعوب التي رآها بما لا يدانيه فيه أحد، وهي معين لا ينضب في تفاصيله التي تمسُّ جميع مظاهر الحضارة البشرية".[13]. وتتجلّى أهميَّتها بالنظر إلى مصر، في كونها انطوت على معلومات، قلَّت نظائرها في المصادر العربية أو التركية أو الأوروبية لمصر في الفترة التي مكثها أوليا جلبي فيها. يضاف إلى ذلك أنَّها تعدُّ من أشهر الرحلات التي قامت بها شخصية تركية أسلامية.[14]

وقد سرد سرد أوليا جلبي أغلب مشاهداته بأسلوبٍ قصصيٍّ مفصَّلٍ مسهبٍ، يتَّسم بالتدفُّق والحيوية والبساطة، ولا يخلو من عنصر التشويق وتأثير الخيال، وملاحقة الحكايات الغريبة والعجيبة والمبالغات، واستدخالها في ضمن الوقائع التاريخية.[15] ولا ريب في أنَّ مثل هذه السرود، هي التي تضفي على مدوَّنة الرحلة قيمتها الأدبية والفنية، ويدنيها من فنِّ السرد القصصي والروائي.

رحلة أوليا جلبي إلى مصر:

زخرت رحلة أوليا جلبي إلى مصر، بنصوصٍ غنيةٍ بمضمون إثنوجرافي[16]، يتعيَّن في ذكر كمٍّ كبيرٍ من المعلومات عن تاريخ مصر ومحاسنها وغرائبها، وأرضها ونباتها وجغرافيَّتها وآثارها، ونيلها وحيواناته، وذكر جوامعها ومتنزَّهاتها، وعادات أهلها وتقاليدهم وطبائعهم، ومسالكهم في الحياة اليومية والمناسبات والأعياد والاحتفالات، وفي ممارساتهم للصناعات والحرف المختلفة، ومهارات الصيد والزراعة والتطبيب، وعُني عنايةً كبيرةً بذكر الطرق الصوفية المنتشرة في حينه، ومشايخها وأعدادها وزوايا المبثوثة في أغلب نواحي مصر، ووصف أبنية المشهور منها وقبابها وأثاثها، وحدَّد بعض مصادر أوقافها، واحتفى بتسجيل طقوس الذكر والحضرة، والاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وموالد كبار الأولياء، ومراسم المحمل الشريف.

إنَّ هذا الوصف الدقيق الذي وقف عليه أوليا جلبي لمصر وأهلها، يمدُّنا بمعلوماتٍ تفصيليةٍ مهمَّةٍ عن المجتمع المصري بأنحائه المتعدِّدة والمتنوِّعة، في القرن الحادي عشر الهجري، وهو من الفترات الزمنية الشحيحة بمثل هذه المعلومات الدقيقة، والمدوَّنة عيانًا وشهودًا.

ولم يقْصُر جلبي رحلته على وصف مصر وأهلها وصوفيَّتها، وإنَّما مهَّد له بذكر مرويَّات تتَّصل بتاريخ دخول السلطان سليم الأوَّل (ت926هـ/1520م) بلاد الشام واستيلائه عليها، وببعض الأحداث والمواقف التي جرت معه، ومنها عنايته المباشرة بضريح الشيخ محيي الدين بن عربيّ. على أنَّ غير قليل من المعلومات التي كان يستمدُّها روايةً وسماعًا، ينبغي التعامل معها بحذر؛ لأنَّها مشوبة بالأخطاء التاريخية، والحكايات الخيالية والمواقف الغريبة، ومنها ما يدخل في باب الخرافات الأساطير. والظاهر أنَّ مثل هذه الروايات كانت تجد صدًى رحبًا في نفسه الشغوفة بسماعها والإنصات إليها.

المخيال الشعبي وسلطان الأولياء: إذا دخل السين في الشين ظهر قبر محيي الدين.

يعدُّ السماعُ إلى الروايات وتدوينها، من المصادر المعرفيَّة التي اعتمدها أوليا جلبي في كتابة رحلته إلى مصر، فضلا عن مشاهداته وتجاربه الذاتية، وخبرته بواقع البلاد التي زارها، بالإضافة إلى ما كان يدوِّنه من بعض بطون كتب التاريخ والرَّحالة والجغرافيين.

يروي أوليا جلبي حكايةَ إعمار السلطان العثمانيّ سليمٍ الأوّل[17]، ضريحَ الشيخِ الأكبرِ محيي الدين ابن عربيٍّ[18] (ت638هـ/ 1240م) ومسجده، ويستند في بناء تفاصيل الرواية إلى جانبين، الجانبِ الأوّل: تراثٍ تاريخيٍّ واقعيٍّ مدوَّنٍ، والآخرِ: تراثٍ شعبيٍّ محكيٍّ، يرمي إلى صياغة الحكاية وسردها على نحو تُذكر فيه التفاصيلُ الصغيرة، وتُملأُ فيه الفراغاتُ، وهو ما لم تحفل به المدوَّنات التاريخية، وهو نمط سردي يندرج في الاستحواذ التاريخي المبني على الرغبة في وصل العجائبي بالأحداث والتاريخ[19]. ولعلَّ هذا يهدف إلى سرد الخبر أو الحكاية؛ لإظهارها وكأنَّها رويت رواية شاهد عيانٍ، وهي– فضلا عن ذلك– تشبع رغبةً غائرةً في اللاوعي الجمعيّ، نحو استكشاف الغوامض ومعرفة الأسرار، ولا سيَّما إذا اتصلت بعوالم الغيب، وخوارق المألوف. ولعلَّ ما كتبه الدكتور حسني محمود حسين عن ابن بطوطة[20] (ت779هـ/ 1377م) في مثل هذا السياق، يصدق على أوليا جلبي. يقول:" إنَّ حكايات الرحلة وخرافاتها وموضوعاتها التي شدَّت انتباه صاحبها، تجعله أكثر قربًا إلى المعتقدات الشعبية، بل ومن كبار معتقديها؛ إذ احتلَّت المسائل المتعلِّقة بالخرافات وحكايا الكرامات والغرائب والدراويش، المكانة الأولى بالنسبة له".[21]

تتمثَّل الوقائع التاريخيَّة للحكاية في أنَّ الشيخَ محيي الدين ابنَ عربيٍّ ذكر في مؤلَّفٍ جفريٍّ[22] له بعنوان:" الشجرة النعمانية في الدولة العثمانية"[23] عبارةً جفريةً يقول فيها:" إذا دخل السين في الشين يظهر قبرُ محيي الدين".[24] وقد قام بتفسير هذه العبارة تلميذُه المباشر صدرُ الدين القونويُّ[25] (ت673هـ/1274م) مشيرًا إلى أنَّ ابنَ عربي رأى بعين بصيرته من طريق الكشف والشهود، أنَّ قبره يكون بدمشق، وأنَّه سيخفى ويندرس زمانًا، إلى أن يظهره واحد من نسل آل عثمان، أول اسمه حرف سينٍ بالتعيين، وبالغ في استخراج الاسم حتَّى تصوَّر له الحرف اسمُ سليم، فيكون إظهار قبره بعد الدثور على يده. وقال ابن عربي:" إذا دخل السين في الشين يظهر قبر محيي الدين" هذا في وقته، ذكرَ ما يكون في وقت ظهوره [سليم الأول]، وفي مدَّة ملكه وبنيه من بعده.[26]

وحقًّا، فقد قام السلطان سليم الأوَّل، بعد دخوله الشام منتصرًا، بإظهار قبر ابن عربي[27]، واعتنى به عنايةً فائقةً أشهرته، وأقام عليه قبَّةً، وبنى عليه جامعًا سمِّي باسم الشيخ، وأوقف عليه الأوقاف، كما شيَّد إلى جانبه تكيَّةً.

هذا ما تذكره أغلب المصادر التي أرَّخت هذا الحدث[28]. وتزيد بعض المصادر إلى الرواية أنَّ قبرَ الشيخِ كاد يختفي تمامًا تحت ركام الأوساخ والأتربة في برهةٍ من الزمن، بسبب نفرٍ من العلماء وعلى رأسهم ابن تيميَّة[29] (ت728هـ/1328م)، ممَّن ناهضوا فكر ابن عربيٍّ وتصوَّفه، وعدُّوه مارقًا زنديقًا، بما أفضى إلى تشويه صورته ونفور العامَّة ممَّا يذكِّر به، فانعكس ذلك النفور على قبره الذي طمرته العامَّة بالأوساخ والأتربة حتَّى كاد يندرس. ولكن هذه البرهة الزمنية لم تكن على عهد السلطان سليم الأوَّل، بل كانت قبل زمنه بما يزيد على قرنٍ من الزمان على أقلِّ تقديرٍ. يقول الصلاح الصفديُّ (ت 764هـ/1362م): "اتفق أنَّ أهل دمشق من كثرة إنكارهم عليه اتخذوا قبره مزبلةً حتّى اختفى تحت الأتربة".[30]

ولكنَّ القبر تحسَّن بعد ذلك وبُني عليه مزار، وظل باقيًا إلى نهاية القرن الثامن الهجري تقريبًا، ثمَّ أُهمل وعاد إلى حالة التهدُّم، ومع ذلك ظلَّ بارزًا ومعروفًا. وقد زاره عليُّ بنُ ميمون المغربيُّ[31] (ت 917هـ/1511م) سنة 904هـ/1498م. قال: سألت عن المقام المبارك– أي قبر محيي الدين– فذُكر لي بالنعت من بعيدٍ، فقيل لي: اسأل على موضع كذا، فإذا وصلت فستجد هناك حمَّامًا فهو في جواره. ثمَّ أتيت حتَّى انتهيت إلى الحمَّام، فسألت الحمَّاميَّ أن يفتح لي الباب لأدخل إلى المقام وأشاهد القبر، فتحيَّل الحمَّاميُّ وصعد من بعض الجدران وفتح باب المقام، فوجدت المقام ليس في أثر العوَّاد، وفيه عشب من يبيس النبات، يدلُّ ذلك على أن لا أحد يأتيه. ثمَّ قال: رأيت في مشهد قبره عند رأسه حجرًا مكتوبًا فيه قوله تعالى:﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ

هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125]. فعند ذلك قوي نور اعتقادي في الشيخ، وتزايد نورًا على نور حتَّى ملأ ظاهري وباطني.(32)

وقال الشمسُ بنُ طولون (ت953هـ/1546م):" في يوم الخميس سابعَ عَشَرِهِ [من شهر محرم سنة 914هـ/1508م] ورد من صفد إلى صالحية دمشق المتصوفُ ابن حبيبٍ [عبد القادر بن محمَّد بن حبيب الصفدي(33) (ت915هـ/1509م)] الذي اشتُهر عنه اعتقاد عقيدة ابن عربي، ثمَّ أتى إلى تربة ابن عربي وصحبته جماعةٌ من معتقدي ذلك... فزار قبر ابن عربي، وصرَّح بالإنكار على من ينكر عليه"(34). وذكر أخبارًا أخرى تشير إلى أنَّ قبر ابن عربي كان معروفًا وإن لم يكن معتنًى به، إلى أن قدم السلطان العثمانيُّ سليم الأوَّل، ودخل الشام فاتحًا، وأمر ببنائه وتشييد مسجده وتكيَّته، بل إنَّ المسجد الذي بناه السلطان بلصقه كان قائمًا من قبل، ولكنَّه كان مسجدًا متواضعًا وشبه مهجور.(35)

وأمَّا الحكاية التي سردها أوليا جلبي، فتضيف إلى أصل هذه الأخبارِ تفاصيل جزئيةً، تتَّصل بالكرامات والغيبيَّات، وتميل إلى الغرابة وإثارة الدهشة. والظاهر أنَّ المخيال الشعبيَّ هو الذي أضاف عناصر الغرابة والكرامة، بعد مضاء ردحٍ من الزمن، على ما قام به السلطان سليم من عملٍ يدلُّ على احترامه لابن عربي وإجلاله له، في محاولة للإعلاء من شأن هذا الحدث السلطانيّ على مستوى السرد الحكائي، وبخاصَّة أنَّه ارتبط تاريخيًّا بنبوءةٍ جفريَّةٍ للشيخ ابن عربي.

وقد تلقَّف أوليا جلبي الحكاية بإضافاتها. وممَّا رواه فيها أنَّ السلطان سليمًا أراد زيارة قبر الشيخ محيي الدين، ولتنفيذ دعوته أُحْضِر اليه بعضُ الطاعنين في السنِّ من أهل الشام ليدلّوه على القبر، فلم يتمكَّنوا من ذلك لجهلهم بموقعه، فتألَّم السلطان من ذلك ونام ليلته، فرآى الشيخ ابن عربي، وخاطبه الشيخ قائلا: يا سليم، كنت منتظرًا قدومَك إلى الشام، فمرحبًا بك يا سليم. أبشر، قد يسَّر الله لك غزو مصر وفتحها، فعليك أن تركب غدًا صهوة جوادٍ أسود من إصطبلك العامر، فهو الذي يأتي بك ويرشدك إلى قبري. وطلب إليه الشيخ محيي الدين أن يبني له تربةً عظيمةً وجامعًا، وذكر أشياء أخرى غير ذلك. فلمَّا استيقظ السلطان سليم، بادر إلى تنفيذ ما وصَّاه به، فقيل له: ليس هنالك جواد بهذا الوصف، ولكنه ألحَّ على تنفيذ طلبه، فوجدوا له بغلةً سوداء جرباء هزيلةً، وعُنوا بها عنايةً فائقةً وأسرجوها حتَّى صارت تليق بركوب السلطان، فركبها وترك لجامها على غاربها لتذهب كما تريد، فتوجَّهت الدابَّة نحو الصالحية، وصعدت كومةً من الزبل والأوساخ، ووقفت عليها وأخذت تبحث في الأرض بحوافرها بكلِّ لهفةٍ، حتَّى اضطُرَ السلطان سليم للنزول من على صهوتها، واستمرَّت في الحفر حتَّى ظهرت صخرة مربَّعة، ثمَّ توقَّفت الدابَّة عن الحركة ورجعت بكلِّ هدوءٍ وسكنت، ولمَّا أمعن السلطان النظر في الصخرة، رآى فيها هذه العبارة منقوشةً عليها بخطٍّ كوفيٍّ جميلٍ: هذا قبر محيي الدين. ثمَّ أمر السلطان بتنظيف المكان، حتَّى إنَّه أخذ ينقل الأنقاض والأتربة بيدية الكريمتين، فحمل صنيعُه العساكرَ على الاشتراك في العمل، وتمَّ تنظيفُه بسرعةٍ، ثمَّ شرع السلطان في إنشاء ما وصَّاه به ابن عربي.(36)

ولو كانت هذه الأحداث قد حدثت بالفعل، لَمَا غفل ابن طولون عن رصدها وتسجيلها، وهو الذي عاش في صالحية دمشق، وكان معاصرًا للسلطان سليم، وكان وقَّافًا على التفاصيل الصغرى، والأحداث الأقلِّ أهميةً من هذه، ويسجِّل ما يدور حوله على شكل مذكِّراتٍ يوميةٍ.

وتُظهر الموازنة بين ما ذكره ابنُ طولون فيما يتَّصل بقبر محيي الدين ابن عربي، وما ذُكِرَ في سياحتنامة مصر، أن أوليا جلبي خلط بين أحداث زمنين، وجعلها تحدث كلُّها في زمن السلطان سليم، فما ذكره من أنَّ القبر كان مطمورًا بالأوساخ والزبل والأتربة حتَّى أخفته، كان قد حدث في زمنٍ سابقٍ يبعد عن زمن السلطان سليم قُرابةَ قرنٍ من الزمان أو يزيد، ومع ذلك فلم يبق حال القبر على ما هو عليه؛ إذ أُصلح من شأنه بعض إصلاحٍ وإن ظلَّ مهملا، غير أنَّ موقعه

كان معروفًا، وكان محطَّ زيارةٍ لمحبِّي الشيخ ومعتقديه، حتّى قدوم السلطان ودخوله الشام، على ما تقدَّم من أقوال ابن طولون. ولكنَّ المخيال الشعبيَّ أسقط حالة القبر المجهولة السابقة في زمنٍ سابقٍ على حالته المعاصرة للسلطان، وجعله مطمورًا مجهول المكان في زمنه؛ وذلك لتسويغ اختلاق عنصر الكرامة الغرائبيِّ في الحكاية، الذي تمثَّل في الرؤيا المنامية، وما ترتَّب عليه من استدخال البغلة السوداء، التي قادت السلطان إلى معرفة قبر الشيخ.

ولا يخفى ما حاكه اللاوعي الشعبيُّ من تناصٍ خفيٍّ، تجلَّى في صياغة عنصر الحكاية المتعلِّق بالبغلة السوداء، وتَخْلِيَةِ سبيلها لتقود السلطان إلى موقع القبر، وكأنَّ قوَّةً غيبيَّةً علويَّةً تتحكَّم في مسارها، على نحوٍ يستدعي حادثة الرسول ﷺ لدى دخوله المدينة المنوَّرة على ناقته، واعتراض القبائل له تبغي نزوله عندها، فكان يقول لهم صلَّى الله عليه وسلَّم:" خلّوا سبيلها؛ فإنَّها مأمورة – لناقته – حتَّى إذا أتت دار بني مالك بن النجار، بركت على باب مسجده، صلى الله عليه وسلم، وهو يومئذٍ مربد لغلامين يتيمين من بني النجار.[37]

والأمر كذلك في اختيار لونٍ مخصوصٍ للدابَّة، وهو اللون الأسود؛ كي يكون مصدر الاختيار مصدرًا غيبيًّا لا شأن للسلطان به. ولعلَّ اختيار اللون الأسود يضمر رمزًا إشاريًّا صوفيًّا، يحيل إلى معنى السيادة والسؤدد؛ إذ من دلالات السواد عند الصوفية، أنَّه" إشارة إلى عالم الجلال والهيبة"[38]، هذا المعنى الذي– ربمَّا– أُريد له وللعنصر السابق، أن يتسلَّلا إلى الحكاية، لكي يحيطا السلطان سليم بهالةٍ من الهيبة والتقديس، ولكي يُلقيا في روع الأناسي أنَّ السلطان محفوف بعناية الغيب، وأنَّ أعماله مؤيَّدة بالتأييد الإلهي العصامي، فيكسب من ذلك مزيد تأييدٍ سياسيٍّ لوقائعه، وتسويغٍ لها ولطموحاته القابلة في توسيع رقعة حكمه.

تكايا الصوفيةِ في مصر:

من المعروف أنَّ غيرَ قليلٍ من سلاطين بني عثمانَ، كانوا يميلون إلى التصوُّف، بل منهم من كان ينتسب إلى بعض الطرق الصوفيَّة. وكانوا يُجِلّون الأولياءَ والعلماء ويحترمونهم، ويشجِّعون على إنشاء التكايا ومساندة الطرق الصوفية والعناية بها، ودعمِها ماديًّا ومعنويًّا.

وليس من الغريب أن تزداد عناية المجتمعُ المصريُّ في ظلِّ السلطنة العثمانية بالتصوُّف والصوفيَّة، وأن تنتشر الطرق وتتفرَّع فروعًا كثيرة في الحواضر والبوادي والقرى، وأن يزداد عدد التكايا، وتنشط ممارسة الطقوس الصوفية ومظاهر الاحتفالات الدينية، ولا سيَّما الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وأن ينتشر الاعتقاد في المجتمع المصريِّ بسلطان الأولياء الروحي ممثَّلا بالكرامات، وبقدرتهم على التصرُّف أحياءً وأمواتًا[39].

يذكر أوليا جلبي أنَّ القاهرة وحدها تحفل بثلاثمائةٍ وستين طريقةً صوفية، وفي مصر كلِّها أكثر من ثلاثة آلاف طريقةٍ، وفي القاهرة وحدها ألف وستون زاويةً صوفية. ولا يذكر مصادره بخصوص هذه الأعداد الكبيرة. ولكنّ ّّ َه عندما يكتب عن أعداد زوايا السيد أحمد البدوي، فإنَّه يشير إلى سجلات خلفائه التي تذكر أنَّ لطريقة السيد البدوي ألفين وستين زاويةً في عموم مصر، ومائتي زاويةٍ في القاهرة وحدها[40]. ولسنا ندري إن كانت هذه الأعداد صحيحةً أم لا؛ إذ إنَّها أعداد كبيرة وقد يكون مبالغًا فيها، حتّى مع ما نعرفه من عناية سلاطين بني عثمان بهذا الشأن. وما يدفعنا إلى هذا القول، هو أنَّ بعض الإحصاءات الخاصة بالطرق الصوفية في مصر إبَّان الحكم العثمانيّ، بلغت قُرابة ثمانين طريقة.[41] على أن الأعداد التي ذكرها أوليا جلبي، وإن كان فيها شيء من البالغة، تحمل مؤشِّرًا بيّنًا على المدى الذي انتشر فيه التصوف الطرقي في المجتمع المصري، حتى يخيل للقارئ أن أهل مصر كلَّهم يدينون به.

وقد ألزم أوليا جلبي نفسة بالكتابة عن التكايا العامرة في القاهرة فحسب، حيث بلغ عددها ثلاثًا وأربعين تكية، منها: تكية الشيخ مرزوقٍ الكفافيّ[42]، وتكية الشيخ الرفاعي[43] (ت 700هـ/ 1300م)، وتكية عمر بن الفارض[44] (ت632هـ/ 1234م)، وتكية الشيخ شاهين[45] (ت954هـ/ 1547م)، وتكية السيدة نفيسة[46] (ت208هـ/ 824م)، وتكية

الشيخ الخلوتيّ[47]، وتكية السادات[48]، وتكية عبد القادر الجيلانيّ[49]، وتكية السلطان قايتباي[50] (ت901هـ/1496م)، وتكية السلطان طومانباي[51] (ت923هـ/1517م)، وتكية المولوية[52]، وسواها[53].

ويصف هذه التكايا وصف مشاهدةٍ وعيانٍ، فيذكر موقعها الجغرافيَّ في الغالب، وعدد المنتسبين إليها من الصوفية، وأحوالهم في التعبُّد وإقامة الأذكار والتدريس وتلاوة القرآن وخدمة المريدين والزوار وبذل الطعام لهم. وقد يعمد إلى وصف بنايات بعض التكايا وحُجَرِها وصفًا دقيقًا مفصَّلا. ويشير إلى بعض كرامات مؤسِّيسها ومناقبهم واعتقاد العامَّة فيهم، وقد يعرِّف بالشيخ الذي تُسمَّى باسمه التكية. ويبدو أنَّه كان يستقي بعض معارفه عن هؤلاء الأشياخ ممَّن كان يلتقي بهم من المريدين وعوامّ المنتسبين على غير تثبُّت، فيقع في بعض الأخطاء التاريخية، ومن ذلك قوله في سياق الحديث عن تكية الشيخ الرفاعي:" ومن مشايخهم العظامِ الشيخ إبراهيم الدسوقيُّ البرهانيُّ[54] (ت676هـ/ 1277م) ابن أخي السيد أحمد البدويّ".[55] والدسوقيُّ ليس ابن أخي البدوي، ولكن كان لأحمد البدويّ صلة بالطريقة الدسوقية وشيخها إبراهيم الدسوقي عندما استقرَّ في مصر، وذلك عن طريق مريدي كلٍّ منهما.[56]

ويتبيَّن من وصفه للتكايا أنَّ منها ما يتكوَّن من بناءٍ متواضعٍ صغيرٍ، ومنها ما يتكوَّن من أبنيةٍ فخمةٍ فارهةٍ تشبه القصور، قبابها وأبوابها موشَّاة بأنواع الزخارف والألوان، وحجرها كثيرة وبسطها ثمينة. منها تكية الشيخ إبراهيم الكلشنيّ[57] (ت940هـ/ 1533م)، وتكية القصر العينيّ[58]. وبعض هذه التكايا يؤمُّها أعيان البلد وكبراؤه، ويأتون إليها للتبرُّك وسماع الإنشاد[59].

وظائف التكايا ومظاهر الذكر والعبادات:

يطلعنا أوليا جلبي على أهمّ مظاهر الذكر والعبادات التي كانت تقام في تكايا القاهرة، في القرن الحادي عشر الهجري. وكان يقوم بزيارة التكايا بنفسه ويسجِّل مشاهداته المباشرة، وربَّما مكث في بعضها أيامًا أو أكثر، كما أخبر عن نفسه في سياق وصف التكية النظامية[60]. قال:" وقد قمت أنا الحقير بنظارتها [التكية النظامية] مدَّة سنةٍ في عهد مولانا حسين باشا ابن جانبلاط".[61] ويصف سلوك الذاكرين وأحوالهم، واحتفالاتهم بالمناسبات الدينية، وألوان الرايات التي يحملها أتباع الطرق. ويمكن إجمال الممارسات العبادات والأذكار الصوفية فيما يأتي:

1. إحياء ليالٍ معينةٍ بالذكر حتَّى الصباح، ولا سيَّما قراءة القرآن، كما كان يحدث في تكية الإمام الشافعي، التي يجتمع فيها قُرابُ ستَّة آلاف شخصٍ[62].
2. الاجتماع بعد صلاة الجمعة، وتلاوة سورة الكهف والأوراد والأذكار، ثمَّ إنشاد الأشعار على نغمة الحجاز، ولا سيَّما أشعار ابن الفارض، كما كان يحدث في تكيته التي يجتمع فيها أكثر من خمسة آلاف شخصٍ[63]. وفي تكية الشيخ إبراهيم الكلشنيّ التي كانت مقصورةً على الأتراك من أهل العلم والمعرفة وأعيان الدولة، كانوا في كلِّ ليلة جمعةٍ يتلون سورة الملك، ويُتبعونها بالأوراد والأذكار، ويشتغلون بسماع الأناشيد وتوحيد الباري جهرًا في حلقةٍ دائريةٍ وبأيدٍ متشابكةٍ، ويعزفون على الناي، ويبخِّرون الخانقاه بالعود والعنبر، وينثرون ماء الورد على وجوه الزائرين، ويقدِّمون مشروب السكر. ويردُّ المنشدون بعضهم على بعض، وبينما هم كذلك يشرع أحد الذاكرين في الغناء برباعية أو خماسية من أشعار "فضولي" أو "الروحي البغدادي" أو "عرفي" أو "عمر الخيام".
3. ممارسة العزلة والصوم والمجاهدات.
4. التدريس، وتلاوة القرآن، واكتساب العرفان، وخدمة المتردِّدين على التكية، وإطعام الطعام، وتوفير المأوى.
5. الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وموالد مؤسِّسي الطرق والأولياء الكبار.

على أنَّه في بعض التكايا كان الذاكرون يخرجون عن آداب الذكر، ويقومون بأداء حركاتٍ تمثيليةٍ، وتظهر في وجوههم تعبيرات وانفعالات غير سويَّةٍ، فيُرعدون بالأصوات وتزبد أفواهُهم وتحمرُّ عيونهم، ولسنا ندري إن كان هذا من أثر الذكر أو من شيءٍ آخر. وقد وصف أوليا جلبي شيئًا من طقوس الذكر عند فقراء طريقة المطاوعة وحركاتهم التمثيلية، في تكية مصلَّى سبيل المؤمنين. يقول:" وإذا بلغوا حالة الوجد رأيتهم كأنَّ بعضهم يصول على بعض، راكبًا جوادًا أصيلا، بإحدى يديه سيف وبالأخرى رمح. يتظاهر بعضهم بأنَّه يطلق السهم على الآخر الذي يتظاهر بمظهر المصاب، وقد أزبد فمه، ويتظاهر آخر بأنَّه تحاشى السهم فنجا منه. ويقف بعضهم موقف المحارب الراجل الرامي بالمزراق، بينما يقف الآخر موقف المدافع المصاب، فيشتبكان في القتال صائحين صاخبين وقد احمرَّت عيونهما، وأزبد فمهما كأفواه الجمال. وقد تبلغ بهم الحال إلى الاشتباك حتَّى يعسر على الشيخ أن يفرّق بينهما"[(64)]. إلى آخر ما ساقه من أحوال غريبةٍ عجيبةٍ، يُقدِمُ على فعلها هؤلاء الذاكرون، وهي ليست من الدين في شيء. ومع ذلك فأوليا جلبي يعلّق عليها محسنًا ظنَّه بأصحابها فيقول:" أقسم بالقرآن العظيم أنَّ بهذه التكية حالا غريبةً وسرًّا من أسرار الله، يُدهَش من شاهده ويحار. فالطريقة المطاوعة محتاجة للمشاهدة، ولا يمكن الوصول إلى مزاياها دون حصول علم اليقين وعين اليقين، وليس الخبر كالعِيان".[(65)]

أرزاق التكايا:

تتزوَّد التكايا الحيَّة بأرزاقٍ مادّيةٍ من مصادر مختلفةٍ، تتكفَّل بسد حاجات المعيشة اليومية، ولا سيَّما الطعام والشراب والمأوى، للمقيمين فيها من الأشياخ والفقراء، فضلا عن الزائرين. وأمَّا التكايا التي تنضب أرزاقها، وتضيع أوقافها، فإنَّها مع مضيّ الزمن تأخذ بالاندثار والزوال.

نستخلص من المعلومات التي أمدَّنا بها أوليا جلبي، أنَّ أشياخ التكايا وفقراءها كانوا يعتمدون في عيشهم، وفي تفرغهم للذكر والعبادة والدارسة، على تمويل مصادر عدَّةٍ منها: الأوقاف التي كانت توقف على التكايا، سواء أكانت مشاريع أو بناياتٍ أو أراضٍ أو أموالا تُخصَّص لها من السلاطين وأعيان الدولة وأغنياء البلد، أو من هدايا الأغنياء وتبرُّعاتهم، أو من النذور والصدقات، وأحيانًا يشارك بعض أشياخ الطرق في بناء التكايا، وتزويدها بمتطلَّبات المعيشة من أموالهم الخاصَّة.

يذكر أنَّ تكية الكلشنية:" لها أوقاف متينة يبذل منها الطعام للمترددين عليها". ويصف تكية الشيخ فرج الله بقوله:" وشيخها عظيم يعتقد الناس في ولايته، يعيش مع أربعين أو خمسين مريدًا على ما يرد إليها من النذور الكثيرة"[(66)]. وفي تكية السلطان قايتباي نحو ثلاثمائة مريدٍ كلُّهم متزوجون يُنفق عليهم من عمارة قايتباي.[(67)] وفي تكية رماة السهم[(68)] خيرات كثيرة من أوقاف إبراهيم باشا الدفتردار.[(69)] وأما تكية الشيخ إبراهيم الكلشني فقد بناها الشيخ بأمواله الخاصة، وهي دار عظيمة.[(70)]

وثمَّة تفاوت بين التكايا في أحوال المعيشة من حيث الغنى والفقر، فبعض التكايا تعاني من العوز وضيق ذات اليد، وتعتمد على الصدقات وما يجود به الزوار فحسب، وأمَّا تلك التي لها أوقاف كبيرة، فغالبًا ما ينعكس ذلك على مظهر التكية العمراني، وسعتها، وكثرة مرافقها، وأثاثها، وبحبوحة العيش فيها.[(71)]

ولعلَّ ممَّا يمكن استخلاصه من هذا النمط السلوكيّ الذي شاع فيه التدين الصوفيُ الطرقيُّ في المجتمع المصري، هو نشوء نزعة التواكل والركون إلى ما توفّره التكايا من سبل العيش عند بعض المريدين والمتعبّدين، فضلا عن المتبطِّلين والمدَّعين. وممَّا يقوي من صحَّة هذه الخلاصة ما أشار إليه أوليا جلبي، من أنَّ" الفقير إذا قدم مصر وأريد إكرامُه، أُنزل ضيفًا على تكية، وإذا كان الصباح قدّم إليه شيخ التكية بارةً مصرية حقَّ الحمَّام، وهكذا يقضي كلَّ ليلةٍ في تكيةٍ ويُنفق عليه هذا المبلغ من جانب الأوقاف، ولو بقي سنة. وإذا اتفق وجوده في رأس السنة خُلعت عليه

أيضًا خرقة. وكان بعض الفقراء يقضون السنة دائرين على الثلاثمائةٍ والستِ والستّين تكيةً التي بالقرافة، على أن يلبثوا كلَّ ليلة في تكية، ويأخذوا المبلغ المعيَّن".[72]

ولا شكَّ في أنَّ ممارسة الحياة على هذا النحو، لا تتَّفق مع ما أقرَّه الإسلام من الدعوة إلى العمل والكسب المشروع، وتوفير سبل العيش الكريم، وعدم الاعتماد على البطالة والتواكل. ولعلَّ هذا ما دفع ببعض الكاتبين إلى النظر إلى التصوُّف في العصر العثماني على أنَّه ترك أثرًا غير محمودٍ في حياة المصريين، وجعلهم يركّنون إلى معتقداتٍ غيبيةٍ لا صلة لها بالواقع العلمي والعملي، وينصاعون لأوامر أرباب الطرق، بصرف النظر عن صحتها أو خطئها، أو مراعاتها للشرع الصحيح والسلوك القويم أو عدمه. وفي ذلك يقول أحدهم، بعد أن عرض لوجهة نظر الإسلام في العمل والكسب المشروع:" هذا هو موقف الإسلام من الدنيا، وهذه هي نظرته إلى العمل والكدِ من أجلها والظفر منها بأوفى نصيبٍ في حدود شريعته، فأين هذا بالله من الصورةِ الهزيلة التي رسمها للدنيا أرباب الطريق؟ أين هذا من الدعوة لترك الدنيا والزهد في نعيمها واحتقار لذَّاتها ... وتكلُّف المتاعب والانقطاع للعبادة والتفرُّغ للتهجُّد والتبشير بالبطالة، والعيش على إحسان الناس وإباحة التسوُّل... إلى غير ذلك ؟ أين تعاليم الإسلام من هذه الآراء المريضة، التي يبشر بها هؤلاء الأدعياء باسم الدين".[73]

ويتبيَّن اتساعُ تأثير كبار الأولياء في حياة المجتمع المصري وعمقه، ممَّا كتبه أوليا جلبي عن المصريين واعتقادهم الراسخ بالسيد أحمد البدوي، في سياق الحديث عن الاحتفال بمولده، حيث يقول:" وذلك لأنَّ الشعب المصريَّ برمَّته يعتقد بالسيد أحمد البدوي ويجلُّونه. فلا يقع أحد منهم في ضيقٍ أو ورطةٍ إلا ويقول:" يا الله، يا سيد يا بدوي". وإذا لزم لأحدهم أن يحلف اليمين في محكمة أقسم:" بسر البدوي".[74]

موكب المحمل الشريف وسلطة أشياخ الطرق:

يذكر أوليا جلبي أنَّه شاهد هذا الموكب مرَّتين[75] ويصفه وصفًا دقيقًا مفصلا. والمحمل الشريف هو هودجٌ مزيَّنٌ بأبهى الحلل، تُحمل فيه كسوةُ الكعبة وهدايا المسجد النبوي الشريف من السلطنة العثمانية، على أحد الجمال في موسم الحج. ويتِمُّ التحضير لهذا الموكب باحتفالٍ كبيرٍ مهيبٍ لا نظير له في مصر، ويحضره خلق كثير عدا الحجيج والمرافقين. وله مراسم معينة يقوم بها الوزير الباشا، الذي يسلِّم المحمل إلى أمير الحجِّ على ملأ من الناس، ولكن، كما يقول أوليا جلبي:" لا يكاد المحمل يخرج من قرَامَيْدان[76] حتّى يحيط بأمير الحج الشيخ مصطفى مرزوق الكفافيُّ، وشيوخ الطرق البدوية والرفاعية والبرهانية، وهي الطرق الأوسع انتشارًا في المجتمع المصري، فينتزعون منه المحمل، فيقود الجمل الشيخُ مصطفى كبير الشيوخ جميعًا؛ فلذا يسلِّم إليه الأمير المحمل ويسير في الركب".[77] وفي هذا المشهد دلالة واضحة على نفوذ سلطة أشياخ الطرق الذين يتسلَّمون قيادة المحمل الشريف من أمير الحجِّ، ويستأثرون بشرف إيصاله إلى الديار المقدَّسة.

ويقدِّم أوليا جلبي معلوماتٍ مهمةً عن أصل قيادة المشايخ لجمل المحمل الشريف، وهو أنَّ الملك الظاهر بيبرس (ت676هـ/ 1277م) أصدر قانون أيصال المحمل إلى العادلية باحتفال عظيم، وكان الشيخ مرزوق الكفافيُّ أكبر المشايخ في عهده، فأخذ المحمل من يد الظاهر بيبرس، وقام بوظيفة الجمَّال، وساق الجمل راجلا حتّى الكعبة، ثمّ زار الروضة المطهَّرة بالمدينة المنوَّرة. وهكذا ظلَّ يقود الجمل من مصر إلى مكة، ذهابًا وإيابًا، إلى أن توفَّاه الله تعالى. ومنه انتقل جريان هذا القانون إلى خلفائه مشايخ الطريقة الكفافية حتّى عصر المؤلِّف.[78]

ويبدو أنَّ أكثر المشاركين في موكب المحمل هم من الصوفية وأرباب الطرق. ويشير أوليا جلبي إلى أنَّ فقراء السيد أحمد البدوي لا عدد لهم ولا حساب لكثرتهم بأرض مصر، ويأتي من بعدهم في الكثرة فقراء الطريقة البرهانية. ويذكر أنَّ فقراء الطريقة المطاوعية يتصدَّرون المحتفلين بالمحمل الشريف، ويصف موكبهم بقوله:" فهم نحو ألف فقيرٍ

وَلِهينَ حيارى، قد حملوا الحراب والرماح والسيوف والتروس، ويسيرون على أصوات الدفِ والقدُّوم والطبل والنقَّارة والصنجات والمزمار، ذاكرين موحِّدين وقائمين بحركاتٍ هجوميةٍ ودفاعيةٍ، كأنَّهم يتقاتلون، قد انتثرت شعورهم ضفائرَ وفتائلَ وخصلا، يمرّون موحِّدين في ظلال خمسمائةٍ أو ستمائة علمٍ من أعلامهم البلق(79). وبعدهم يمرُّ أتباع الطرق الأخرى أفواجًا أفواجًا، وهم يردِّدون الأذكار الخاصَّة بهم. ويسمِّي أسماء ثمانٍ وخمسين طريقة، لكلِّ طريقةٍ أعلامُها الخاصَّة بها.

الاحتفال بالموالد:

تعدُّ الاحتفالات بموالد أشياخ الطرق من أهم المناسبات التي تقام سنويًّا، بل يكاد يكون على مدار أشهر السنة، فضلا عن المولد النبويّ الشريف. ولهذه الاحتفالات ترتيبات خاصَّة يقوم بها الشيوخ مع الباشا الوزير. وأوَّل مولدٍ يُبدأ به مولد السيد أحمد البدوي، ويكون ذلك في مطلع السنة القبطية. ولعلَّ البدء أولا بمولد السيد البدوي يرجع إلى انتشار طريقته في عموم مصر، وكثرة أتباعه الذين يفوقون أتباع أيّ طريقةٍ أخرى. وأوَّل ما يقوم به أتباع السيد البدوي عند اقتراب موعد الاحتفال هو الإعلان عن المولد، فيتجوَّلون في الشوارع والطرقات والأسواق، حفاةً عراة الرؤوس، ضاربين الدفَّ والنقَّارة والقدُّوم، ذاكرين ومتغنِّين بقصائد ومواويل لمدَّة ثلاثة أيَّامٍ بلياليها.

ويصف أوليا جلبي ما يحدث في هذه الأيام، فيقول:" ففي اليوم الأوَّل يخرج خمسةَ عشرَ أو عشرون ألفًا من المشايخ وأتباعهم بآلاف الرايات الحمر والأعلام... ويسيرون ضاربين الطبول والقدُّوم والنقَّارات، ونافخين في الصور كما ينفخ إسرافيل، وقد استغرق سبعمائة شيخٍ من المشايخ الكرام، وآلاف من لابسي الملابس المهلهلة، ممزَّقي الصدور، حاسري الرؤوس من فقراء باب اللوق القذرين، في التوحيد. ويستمرُّون في السير بهذه الطريقة حتّى ميدان قصر الباشا صفوفًا صفوفًا، وجماعاتٍ جماعات، ذاكرين من أسماء الله " يا رزاق" حتّى إذا بلغوا ذلك الميدان، قاموا بالتوحيد السلطاني، فأدهشوا المنكرين وجعلوهم حيارى مبهوتين"(80).

وبعد انتهاء الذكر يتقدَّم المشايخ، ويمثلون أمام حسين باشا جانبلاط في الديوان العالي، ويدعون له، ويلتمسون أمره العالي بإقامة مولد السيد أحمد البدوي، حسب قانون السلطان قايتباي، فيقبل منهم الوزير، ويأمر بإقامته، يعطي المشايخ تعليماته حتّى لا تحدث فوضى من العربان الأشقياء والمحتالين، ويوجِّه أمره إلى حكّام المناطق القريبة من خانقاه السيد البدوي بإرسال جنودهم لنصب الخيام، والحراسة والمراقبة طيلة أيام المولد.

وبعد انتهاء صدور الأمر، يقوم المشايخ بالدعاء للباشا الوزير والثناء عليه، ويطالبونه "بحالياتهم" للمولد وهي:

1. خمسون سفينة من إدارة الرسالة لركوب الفقراء.
2. خمسون قنطارًا من البكسمات والبصل والجبن الحلّوم من المحتسب.
3. حاليات التشريفات التي درج الوزراء السابقون على دفعها، وهي عمامتان خضراوان لقبر السيد أحمد البدوي الشريف، وأربع أقات من العود، وسجادة مزركشة، وشمعتان عسليتان تزن الواحدة خمسين أقة، وخمسون ذهبًا لخمسين ختمة شريفة. وتسمَّى هذه حالية الحالية.

فيظفر المشايخ بطلباتهم، ثمَّ يسلِّمون على الباشا ويغادرون، ويكفُّ الفقراء عن التوحيد. ويتلو شيخ الجلادين الأمر الشريف بحضور أهل الديوان، وما أن يفرغ منه حتَّى يأخذ الفقراءُ مرَّةً أخرى في الذكر والتوحيد، ويسير خليفة الشيخ السيد أحمد البدوي على جواده محيِّيًا الناس، ويسير شيخ المشايخ مصطفى أفندي الرومي، خليفة الشيخ مرزوق الكفافي مترئِّسًا جيمع المشايخ، ويتقدَّمهم جميعًا منادون ينادون:" مولد السيد البدوي في يوم كذا". ثمَّ ينصرف كلُّ شيخٍ إلى خانقاه، وينصرف سائر المشايخ والأتباع والفقراء كلٌّ إلى سبيله.

وتتفاوت مظاهر الاحتفال بالموالد، فمنها ما يكون متواضعًا في إمكانيَّاته، ومنه ما يكون ذا خير عميمٍ وأبَّهةٍ عظيمةٍ، كمولد السيد الشيخ البكري الذي تُزَيَّنُ فيه ثلاثةُ آلافٍ وستون شرفةً من منارات مساجد القاهرة، بمئات آلاف القناديل، على نحوٍ يمسي فيه قلب المدينة نورًا ساطعًا. ويقيم السيد البكريُّ احتفالا عظيمًا على ضفَّة بركة الأزبكية، يدعو إليه أعيان القاهرة طبقةً طبقةً، فيخصِّص لكلِّ طبقةٍ يومًا، فيخصِّص يومًا لأئمَّة المساجد والخطباء، ويومًا للعلماء والصلحاء، ويومًا لمشايخ الشرفاء، ويومًا لأعيان الأشراف، ويومًا لنقيب الأشراف، ويومًا لشيوخ الإسلام من المذاهب، ويومًا للمدرِّسين، ويومًا للقضاة وقاضي مصر، ويومًا لوزير مصر، ويقيم يومًا خاصًّا للأمراء.

وفي كلِّ هذا الأيامِ تُبذلُ نعم كثيرة، وتقام الموائد ليل نهار في مائة موضعٍ، يؤمُّها الخاصُّ العامُّ. وتقام مئات السرادقات والمظلات والخيام والأخبية، يجتمع فيها مشايخ مائةٍ وأربعين طريقةً وفقراؤها، فيقومون بالذكر والتوحيد، وتُقام سوق كبيرة تباع فيها الأطعمة والمرطبات وضروب السلع، وتُزيَّنُ القصور والبيوت بعددٍ لا يحصى من القناديل، وينتشر الفرح والبهجة، وتُطلق الألعاب النارية والطلقات من البنادق، ويدوِّي الفضاء بأصوات الكوسات السلطانية والطبول العثمانية التي يضربها أمراء اللواء المقيمون حول البركة، ويشرع الموشِّحون في تلاوة القصة النبويَّة بألحانٍ منسجمةٍ حزينةٍ، وفي أثناء ذلك يقوم سبعون أو ثمانون خادمًا ظريفًا بتطييب الجوِّ وتعطيره بأنواع الأبخرة والعطور، ويقدِّمون أنواع الحلوى والمشروبات الممسَّكة والمعنبرة، وهكذا تُحيى الليلة حتَّى الصباح، وتُتلى فيها قصة المولد ثلاث مراتٍ. وخلاصة القول كما يرى أوليا جلبي، إنَّها حفلة يقصر اللسان عن وصفها[81] .

وفي اليوم نفسه الذي يقام فيه مولد السيد البكريِّ، يقام مولد آخر في خانقاه الشيخ إبراهيم الكلشني، ويتوزَّع المحبُّون بين المولدين. بيد أنَّ الحاضرين في مولد الكلشني هم من خاصَّة الناس، وغالبهم من الأتراك ورجال الجيش، وأرباب المعرفة والطريقة، والشعراء والكتاب، ولا يُسمح للغرباء عن هؤلاء بالدخول[82].

ويسترسل أوليا جلبي في وصف موالد الطرق الأخرى، فيذكر اثنين وعشرين مولدًا، لكلِّ طريقةٍ مولد. وفي سياق وصفه لمولد الشيخ عمر بن الفارض، يشير إلى بعض ما يعتقد الصوفية حدوثَه في ليلية هذا المولد بقوله:" وقد أجمع علماء مصر على أنَّ روح النبي محمَّدٍ ﷺ، تحضر فيه في تلك الليلة"[83].

ومن مظاهر نفوذ الصوفية الكبير في المجتمع المصري ورجالات السلطة، ما ذكره أوليا جلبي- في أثناء الحديث عن الموالد- عن شيخٍ معمَّرٍ عمره مائة وسبعون سنةً، ممَّن شَرُفَ بصحبة الشيخ أبي السعود الجارحيِّ[84] (ت933هـ/1526م). أُحضر إلى حسين باشا بنِ جانبلاط، فلثم الباشا يدَه ونال دعاءه. وكذلك فعل أوليا جلبي الذي يقول:" قد لثمت يد شيخٍ معمَّرٍ... ممَّن رأى وجه أبي السعود الجارحي النوراني، ونال شرف صحبته، وفزت بدعائه وبركته. وإذا كان الشيخ أبو السعود سلطانًا جليلا فمولده أعظم"[85].

الخاتمة:

وخلاصة القول، إنَّ أوليا جلبي تمكَّن ببراعة وصفه، ودقَّة ملحظه، وشغفه بالتفاصيل، أن يرسم مشهدَ التصوُّف والصوفية في رحلته إلى مصر، على نحو أصيلٍ ومحكمٍ، ولعلَّه يكون غير مسبوقٍ، وأن يلتقط بعينه الفاحصة المتمعِّنة، ما تغفله المدوَّنات التاريخية الرسمية في الأغلب الأعمّ. ولمشاهداته قيمة تاريخية غنية؛ لأنَّه لم يكتف بالوصف الخارجي، بل مارس التصوُّف وطقوسه، واختلف إلى الزوايا، واختلط بالمشايخ والفقراء وأرباب الأحوال، وذاق بعض ما ذاقه القومُ من معارف وأسرارٍ. يقول عن نفسه: "والله عليم بأنِّي كنت أنا الحقير أيضًا أحضر هذه الاجتماعات [حفلات الذكر التي كانت تقام أيام الجمع في خانقاه الشيخ عمر بن الفارض] مع الخواصِّ مدَّة إقامتي بالقاهرة، ولم أتغيَّب جمعةً واحدةً، فكم من كشوفٍ وعلائم وكراماتٍ شاهدتها، فقد كنت أكتسب الصفاء وأقف على مختلف الأسرار"[86].

وتتجلّى القيمة المعرفية والتاريخية لما سجَّله أوليا جلبي في رحلته، في أنَّ تفاصيل تاريخ التصوف في مصر إبَّان العصر العثماني يكاد يكون شبه مجهول، ومن غير اليسير أن تجد دراساتٍ معاصرةً تلمُّ بالفترة التاريخية التي وثَّقها أوليا جلبي، اللهم سوى قليل من الإشارات التي لا تحيط بحقيقة واقع التصوُّف والطرق الصوفية، بل إنَّ في هذه الإشارات من الهجوم والتهميش أكثر ممّا فيها من الموضوعية، نتيجة النظرة الكلّيَّة إلى أنَّ التصوُّف في العصر العثمانيّ في مصر لم يأت بجديد ... وأنَّ التصوَّف آنذاك كان طرقيًّا فقط، مليئًا بالجهل والشعوذة، وذلك في إطار اجترار المقولات المعهودة عن التأخُّر الفكريّ للعصر وإنتاجه"(87).

وهو إلى ذلك، يمتلك خبرةً سرديةً إبداعيةً، تتناول المشاهد من زوايا متعدِّدة، ويتوسَّل في رسمها بلغة واصفةٍ دقيقةٍ تنحو في غير قليلٍ من المواطن نحو الوصف الأدبيّ، واستدخال الحوار والسرد الحكائيّ، فيروي تارةً بضمير الأنا، وتارة أخرى بضمير الغائب، وفق ما يقتضيه المشهد السرديُّ. وكان احتفاؤه بذكر أسماءِ أنواع الأذكار والآلات والأسلحة والألقاب وأنواع الأطعمة والأشربة، وبعض أنواع الطنافس والعطور والأبخرة، وسوى ذلك ممَّا كان متداولا في بيئة المجتمع المصريّ الصوفيّ- ينمُّ عن اطِّلاع واسعٍ وخبرةٍ بما يعايشة ويصفه. ولعلَّ هذه الأسماء تستحقُّ أن يقوم أحد الدارسين برصدها، ورصد سواها ممَّا هو متناثر في رحلته واستخراجها، وضمِّ بعضها إلى بعض في معجم لغويٍّ، يعبِّر عن مجموعة الحقول الدلالية التي تنتمي إليها كلُّ مجموعةٍ لغويةٍ، ويجتهد في الوقوف على معانيها؛ ليكون عونًا لمن يتوجَّه لدراسة التصوُّف والطرق الصوفية في المجتمع المصري، في هذه الحقبة الزمنية من تاريخ الدولة العثمانية.

لقد صوَّر أوليا جلبي ما رآه في مصرَ الصوفيةِ تصويرًا أمينًا، مكَّننا من معرفة مدى تغلغل التصوف الطرقي في المجتمع المصري على مختلف طبقاته، ومدى عناية السلطنة العثمانية بنشر معتقدات التصوُّف، ومدى إجلالهم لأرباب الطرق، ورعاية الخانقوات ودعم شيوخها وفقرائها، ومدِّهم بما يلزمهم من متطلَّبات حيواتهم اليومية.

ولقد كانت مصرُ من قبلُ لديها هذه القابليةُ الروحانية للإسلام الصوفيّ، لكثرة ما فيها من أولياءٍ ومزاراتٍ ومشاهد ومقاماتٍ وسادةٍ أشرافٍ. وليس ثمَّة مساغ للشكِّ في القول: إنَّ صورة التصوُّف والصوفيَّة في سياحتنامه مصر، تُظهر أهل مصر كلَّهم وكأنَّهم يدينون به، فهو دينهم وغذاؤهم الروحيُّ وثقافتهم، كما تُظهر مدى نفوذ الأولياء ومشايخ الطرق عند الساسة العثمانيّين، وعند عامَّة الشعب المصري حتى اليوم، سواء في مصر أو في بلاد الشام. وقد لا نبتعد عن الصواب إذا ما رأينا أنَّ السلطة العثمانية استثمرت محبَّة أهل مصر للتصوُّف والصوفية، فدفعت بهم إلى مزيدٍ من الاستغراق فيه، وأغدقت على المشايخ والتكايا والفقراء، وتودَّدوا إليهم، وشاركوهم في معتقداتهم، ولعلَّ كلَّ ذلك كان يصبُّ في مصلحة الدولة العثمانية واستقرار نفوذها السياسيّ.

الهوامش:

(1) أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي (ت1951م)، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، نقله إلى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم، راجعه: إغور بليايف، القاهرة، لجنة التأليف الترجمة والنشر، د. ت، ق2، ص639. وينظر: **موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين: السياحات الصوفية والزيارات الدينية**، درسها وحققها ووضع حواشيها: تيسير خلف، صدرت الموسوعة بمناسبة احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية 2009 بالتعاون مع دائرة الثقافة والإعلام بعجمان، دولة الإمارات العربية المتحدة، ج3، ص15.

(2) أوليا جلبي (ت 1094هـ/1682م)، **سياحتنامه مصر**، ترجمة: محمد علي عوني، تحقيق: د. عبد الوهاب عزام، د. أحمد السعيد سليمان، تقديم ومراجعة: د. أحمد فؤاد متولي، القاهرة، دار الكتب والوثائق المصرية،

2009، ص10–12، 15–16. على أن كراتشكوفسكي يذكر أنه توفي سنة 1090هـ/1679م. انظر: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ق2، ص639.

(3) السلحدار: كلمة تركية تعني حملة السيوف.

(4) **موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين،** ج3، ص16–17.

(5) عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسيني الجيلاني الحنبلي، إمام في الشريعة والطريقة، ومؤسس الطرقة القادرية. ولد في جيلان (وراء طبرستان) سنة 471هـ/ 1078م، وتوفي في بغداد. خير الدين الزركلي (ت1396هـ/1976م)، **الأعلام،** بيروت، دار العلم للملايين، 1999، ط14، ج4، ص47.

(6) هو أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني، أبو العباس البدوي، المتصوف، صاحب الشهرة في الديار المصرية. أصله من المغرب، ولد بفاس. ودخل مصر، وعظم شأنه فيها. وتنسب إليه الطريقة البدوية. وممن انتسب إلى طريقته الملك الظاهر بيبرس. الزركلي، **الأعلام،** ج1، ص175.

(7) أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسيني، أبو العباس. من أئمة الزهاد الصوفية. ولد بقرية حسن من أعمال واسط بالعراق سنة 512هـ/ 1118م. وهو مؤسس الطريقة الرفاعية. توفي بقرية أم عبيدة بالبطائح، بين واسط والبصرة، ودفن فيها. الزركلي، **الأعلام،** ج1، ص174.

(8) مولانا جلال الدين الرومي، محمد بن محمد بن الحسين بن أحمد البلخي القونوي الرومي، ولد في بلخ ببلاد فارس سنة 604هـ/ 1207م. تفقّه على المذهب الحنفي، ثم تصوف. وهو صاحب المثنوي المشهور. وتنسب إليه الطريقة المولوية. توفي بقونية، وفيها ضريحه. الزركلي، **الأعلام،** ج7، ص30.

(9) **موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين** ، ج3، ص21–53.

(10) حسين باشا ابن حسن بن أحمد بن رضوان بن مصطفى، الغزي المولد، حاكم غزة. كان نبيه القدر كبير الهمة. سجن بسبب عدم تقيده بأمر الحجاج وحراستهم. ونقل إلى الباب السلطاني، ثم قتل في السجن. محمد أمين بن فضل الله المحبي الحنفي (ت1111هـ/ 1699م)، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، بيروت، دار الكتب العلمية، 2006، ط1، ج2، ص87.

(11) خان الزيت: سوق يقع في قلب مدينة غزة، وما زالت آثاره قائمة إلى اليوم. وكان مخصَّصًا لتجارة الزيت والزيتون.

(12) **موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين** ، ج3، ص55–58.

(13) كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي،** ق2، ص640.

(14) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص16.

(15) كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي،** ق2، ص638–639، ص641.

(16) الإثنوجرافيا (Ethnography): هي دراسة الثقافات الحية باستعمال أساليب أنثروبولوجية مثل الملاحظة المباشرة المستمدة من المجتمع موضوع الدراسة. وقد أسهمت الإثنوجرافيا بتقديم بيانات مفيدة لعلماء الآثار. هتشنسون، **معجم الأفكار والأعلام،** ترجمة: خليل راشد الجيوسي، مراجعة وتدقيق: رانية نادر، بيروت، دار الفارابي، ط1، 2007، ص6. وموضوع الإثنوجرافيا يتعلق أساسًا بوصف طبائع البلدان، وخصال أهلها وأسلوب حياتهم، وصولا إلى الوصف الدقيق والمترابط لثقافات المجتمعات الإنسانية. ينظر: د. حسين محمد فهيم، **أدب الرحلات (عالم المعرفة)،** الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، حزيران، 1989م، ص50.

(17) يروي أوليا جلبي هذه الحادثة، في سياق حديثه عن سيرة السلطان سليم الأول ووقائعه، واستيلائه على بلاد الشام، ودخوله مصر سنة 922هـ/1516م، وهو جزء من تاريخ الملوك والسلاطين والولاة الذين حكموا مصر في تاريخها الطويل، وقد استمد أوليا جلبي معلوماته من بطون الكتب التاريخية، والروايات المحكية.

(18) محمد بن علي بن محمد بن عربي، أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي، المعروف بمحيي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر. من كبار فلاسفة الصوفية. ولد بمرسية في الأندلس. وارتحل إلى المشرق، وزار الحجاز والعراق وبلاد الروم والشام. واستقر بدمشق وتوفي فيها. وله مصنفات تزيد على أربعمائة. الزركلي، **الأعلام،** ج6، ص281.

(19) د. شعيب حليفي، **الرحلة في الأدب العربي: التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل،** القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، 2006م، ط1، ص459.

(20) محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة. رحالة، ومؤرخ. ولد سنة 703هـ/ 1304م في طنجة بالمغرب الأقصى ونشأ بها. طاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز وما وراء النهر وبعض الهند والصين وأواسط إفريقية وسواها. وسجل مشاهداته في رحلته الشهيرة:" تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". توفي في مراكش. الزركلي، **الأعلام،** ج6، ص235–236.

(21) د. حسني محمود حسين، **أدب الرحلة عند العرب،** بيروت، دار الأندلس، 1983م، ط2، ص40.

(22) علم الجفر: هو علم يبحث فيه عن الحروف من حيث دلالتها على أحداث العالم. إبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط،** إستانبول، المكتبة الإسلامية، د. ت، مادة: جفر، ص126.

(23) مع أن لهذا المصنَّف عددا من المخطوطات, وعليها شرح لابن عربي نفسه، وشروح لمعاصرين له أو قريبي عهد به، فضلا عن متأخرين، فإن الأمير عبد القادر الجزائري، وهو التلميذ الروحي للشيخ الأكبر، يستبعد نسبة هذا المصنَّف إليه. ينظر: محمد رياض المالح، **الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي: سلطان العارفين وإمام المحققين وبقية المجتهدين،** أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث– المجمع الثقافي، 2007م، ص297.

(24) صدر الدين القونوي (ت673هـ/1274م)، **شرح الشجرة النعمانية،** ضبطها وصححها وعلق عليها: الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2004م، ط1، ص30.

(25) محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف بن علي القونوي الرومي، صدر الدين. شافعي المذهب، صوفي المشرب، من كبار تلاميذ الشيخ محيي الدين ابن عربي. مولده ووفاته بقونية. وله مراسلات مؤلفات في التصوف. الزركلي، **الأعلام،** ج6، ص30.

(26) القونوي، **شرح الشجرة النعمانية،** ص31.

(27) يقع ضريح الشيخ ابن عربي في أسفل الزاوية الجنوبية الشرقية لمسجده الذي بناه السلطان سليم الأول، في منطقة "الصالحية" على سفح" جبل قاسيون". وسمي الحي الذي فيه ضريحه باسمه؛ أي: حي الشيخ محيي الدين.

(28) ينظر على سبيل التمثيل لا الحصر: نجم الدين بن محمد بن محمد الغزِّي (ت1061هـ/1651م)، **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة،** وضع حواشيه: خليل منصور، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997، ط1، ج1، ص211. أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت1089هـ/ 1678م)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب،** بيروت، دار التراث العربي، د. ت، ج8، ص145. محمد أديب آل تقي الدين الحصني (ت1358هـ/ 1940م)، **منتخبات التواريخ لدمشق،** بيروت، دار البيروتي، 1979، ط1، ج1، ص241.

(29) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية، شيخ الإسلام. ولد في حران سنة 661هـ/ 1263م. وانتقل إلى دمشق، ثم إلى مصر، ثم عاد إلى دمشق. وسجن مرات. وتوفي معتقلا. كان من دعاة الإصلاح، بارعًا في العلم والتفسير والأصول والفتوى. وله مؤلفات جمّة. الزركلي، **الأعلام**، ج1، ص144.

(30) نقلا عن: المالح، **الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي: سلطان العارفين وإمام المحققين وبقية المجتهدين**، ص858.

(31) علي بن ميمون المغربي، أبو الحسن بن ميمون الهاشمي القرشي المغربي الغماري الفاسي. أصله من غمارة، وسكن مدينة فاس، واشتغل بالعلم، وتولى القضاء، وصحب مشايخ الصوفية. ودخل بلاد الشام، وربّى كثيرا من الناس. ثم توطّن بمدينة بروسا، ثم رجع إلى البلاد الشامية وتوفي فيها. الغزي، **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، ج1، ص272.

(32) الغزي، **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، ج1، ص274. وينظر: المالح، **الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي: سلطان العارفين وإمام المحققين وبقية المجتهدين**، ص 858-859.

(33) عبد القادر بن محمد بن عمر بن أبو النجائب ابن حبيب الصفدي الشافعي. زاهد من أهل صفد. ظهر فضله بينهم. وزار دمشق وأقبل عليه الناس. وتوفي بصفد. الزركلي، **الأعلام**، ج4، ص42-43.

(34) شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي (ت953هـ/1546م)، **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان**، وضع حواشيه: خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، 1998، ط1، ص265.

(35) شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي (ت953هـ/1546م)، **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**، تحقيق: محمد أحمد الدهان، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، د. ت، ط2، ص114-115.

(36) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص166.

(37) ابن هشام (ت218هـ/834م)، **السيرة النبوية**، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا، وأبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، بيروت، المكتبة العلمية، د. ت، ج2، ص494-495.

(38) السيد الشيخ محمد الكسنزان الحسيني، **موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان**، دمشق، دار المحبة، بيروت، دار آية، 2005م، ط1، ج11، ص435.

(39) لعلَّ منشأ هذا الاعتقاد يرجع إلى بعض الأصول التي رسَّختها مدوَّنات التصوف، من مثل الأبواب التي خصَّصتها لذكر الأدلَّة القرآنية والحديثية على إثبات الكرامات للأولياء وقدرتهم على الصرُّف، وممّا تناقلته كتب الطبقات والتراجم الصوفية من أخبارهم وأحوالهم التي تعزِّز هذا السلطان. ينظر على سبيل المثال: أبو نصر السرّاج الطوسي (ت378هـ/ 988م)، **اللمع في التصوف**، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، مصر، بغدا، دار الكتب الحديثة، ومكتبة المثنى، 1960، ص396-405. عبد الوهاب بن علي الأنصاري المعروف بالشعراني (ت 973هـ/ 1565م)، **الطبقات الكبرى**، القاهرة، دار الفكر، د.ت.

(40) الكسنزان الحسيني، **موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان**، ص318-319.

(41) د. توفيق الطويل، **التصوف في مصر إبان العصر العثماني**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988م، ص75.

(42) الشيخ مرزوق الكفافي، أحد خلفاء الطريقة البدوية، وأحد المشايخ الذين كانوا على قيد الحياة في أيام السلطان سليم الأول. وتكيته في جامعه. أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص319. وذكره الشيخ عبد الغني النابلسي

(ت1143هـ/ 1730م) في رحلته: **الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز**، تقديم وإعداد: د. أحمد عبد المجيد هريدي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986. وقال: "مررنا على البحر المالح، على قبر الرجل الصالح، مرزوق الكفافي. ويقال إنه كان من أهل المغرب من التجار، وأنه مرض في طريق الحاج، فأمر بحفر البئر وعمارته في منزل "ظبا" ثم مات دفن هنا على حافة الطريق بساحل البحر". ص311.

(43) زاوية قديمة كانت قائمة مكان الجامع المعروف بجامع الرفاعي الذي بنته خوشبار، والدة الخديوي إسماعيل. عبد الرحمن الجبرتي، (ت1240هـ/1825م) **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، تحقيق: د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003، ج1، ص257، هامش رقم (1). والرفاعي هو الشيخ علي أبو شباك ابن السيد عز الدين أحمد الصيادي الرفاعي، ولد بمصر سنة 635هـ/1237م، واشتهر أمره. ويعمل له مولد جليل. توفي سنة 700هـ/ 1300م. أبو الهدى الصيادي الرفاعي (ت1328هـ/1909م)، **تنوير الأبصار فى طبقات السادة الرفاعية الأخيار**، د. م، د. ت، ص56.

(44) تقع تكية ابن الفارض بأسفل جبل الجيوشي بالمقطم. أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص320، ص587. وابن الفارض هو عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، أبو حفص وأبو القاسم، شرف الدين. أشعر المتصوفين. يلقب بسلطان العاشقين. له ديوان شعر. الزركلي، الأعلام، ج5، ص55.

(45) هي بشارع دير النحاس بمصر العتيقة، غير مقامة الشعائر، وبها ضريح الشيخ شاهين، ويعمل له حضرة كل ليلة خميس، ومولد كل سنة. علي باشا مبارك، **الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة**،، القاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، 2004م، ج6، ص89. والشيخ شاهين هو شاهين بن عبد الله الجركسي، عابد زاهد عارف بالله. كان من مماليك السلطان قايتباي، فأطلقه. كان الأمراء والقضاة يزورونه. وله كرامات. الغزّي، **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، ج2، ص149.

(46) هي بين مشهد السيدة رقية والمشهد النفيسي. كانت مدرسة تعرف بأم السلطان. اندرست هي وما حولها، ثم في نحو سنة 1280هـ/ 1863م جرت فيها عمارة وجعلت فيها مساكن للدراويش، وسكنوها. وكان يصرف عليها من طرف الأوقاف. علي باشا مبارك، **الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة**، ج6، ص164. والسيدة نفيسة هي: نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، صاحبة المشهد المعروف بمصر. تقية صالحة، عالمة بالتفسير والحديث. ولدت بمكة سنة 145هـ/ 762م، وتوفيت بمصر سنة 208هـ/ 824م. الزركلي، **الأعلام**، ج8، ص44.

(47) تقع في الجودرية، وهي قديمة مقامة الشعائر، ولها أوقاف جارية عليها بمعرفة ناظرها آنذاك الشيخ محمد الأمير من ذرية الشيخ محمد الأمير الكبير. وفيها ضريح يقال له ضريح الشيخ الخلوتي. علي باشا مبارك، **الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة**، القاهرة، ج6، ص73.

(48) تقع هذه التكية في حارة السادات الوفائية، إلى جوار سراي المرحوم مصطفى باشا أخي الخديوي إسماعيل باشا. وبها ضريح رجل صالح يقال له الزيات. يعمل له حضرة كل يوم إثنين. علي باشا مبارك، **الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة**، ج6، ص83.

(49) تكية صغيرة بالقرب من سراي الكتخذا تحت زاوية الملك الظاهر. أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص322. وانظر ترجمة الإمام عبد القادر الجيلاني في الهامش رقم (6).

(50) تكية كبيرة تقع قبالة جامع السلطان قايتباي، وهي مخصصة للطريقة البدوية. أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص335. وقايتباي هو قايتباي المحمودي الأشرفي ثم الظاهري، أبو النصر سيف الدين، سلطان الديار المصرية، من ملوك الجراكسة، كان من المماليك. وتسلطن سنة 872هـ/1467م،. وكان حسن السيرة. الزركلي، الأعلام، ج5، ص188.

(51) تكية واسعة تحت قصر الضيوف بالعادلية، يقيم بها نحو عشرين مريدًا خلوتيًّا. أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص335. طومانباي، أبو النصر، الملقب بالملك الأشرف، من ملوك الجراكسة بمصر. تولى السلطنة سنة 922هـ/1516م. كان محمود السيرة في سياسته ورعيته. أعدمه السلطان سليم شنقًا.

(52) تقع في شارع السيوفية بين حدرة البقر، والبندقدارية المعروفة بزاوية الآبار، وتلك التكية في محل الرباط الذي أنشأه الأمير شمس الدين سنقر السعدي بمدرسته المعروفة بالسعدية التي هي جزء من التكية. وهي لدراويش الطريقة المولوية التي تنسب لمولانا جلال الدين الرومي. علي باشا مبارك، **الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة**، ج6، ص164.

(53) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص319-336.

(54) إبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد، من أهل دسوق بغربية مصر، يتصل نسبه بالحسين السبط. من كبار الصوفية، وتنسب إليه الطريقة الدسوقية. الزركلي، الأعلام، ج1، ص59.

(55) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر** ، ص319.

(56) أحمد عز الدين خلف الله، **من قادة الفكر الصوفي الإسلامي السيد إبراهيم الدسوقي**، لجنة التعريف بالإسلام (كتاب 42)، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1968م، ص 50.

(57) تقع تجاه الجامع المؤيدي على يسار الذاهب من باب زويلة، طالبا باب الخرق. أنشأها الشيخ إبراهيم الكلشني سنة 890هـ/ 1485م، وأنشأ بها خلاوي للصوفية، وعمل فيها محلا لإقامة الصلاة والأذكار. وتعمل فيها الأذكار غير الحضرة التي في كل أسبوع والمولد السنوي. توفي ودفن في زاويته. علي باشا مبارك، **الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة**، ج6، ص156.

(58) يقع قصر العيني على شاطئ النيل غربي القاهرة، وهو متنزه بديع ذو شجر وطرق واسعة. وفيه التكية البكتاشية وسط حديقته الغناء، وهي قبة عالية بيضاء مطلية بالجير الأبيض، وداخلها ساحة عظيمة تتسع لألف نفر. أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص329. وينظر: علي باشا مبارك، **الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة**، ج6، ص162.

(59) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص330.

(60) أنشئت التكية النظامية سنة 757هـ/ 1356م، أنشأها شيخ الشيوخ نظام الدين إسحق بن عاصم الأصفهاني الحنفي (ت783هـ/1381م) من ماله الخاص، على عهد الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون. د. عاصم محمد رزق، **خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي**، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1977م، ط1، ج1، ص 358-360.

(61) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص325. تولى حسين باشا جانبلاط مصر سنة 1087هـ/1676م. أحمد بن زيني دحلان (ت1304هـ/1886م)، **تهذيب تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية**، بيروت، شركة دار المشاريع، 2006، ط2، ص167.

(62) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص320.

(63) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص320-321.
(64) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص333.
(65) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص334.
(66) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص334. وتكية فرج الله هذه تكية صغيرة على ساحل النيل ببولاق.
(67) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص335.
(68) تكية متصلة بمسجد قدم النبي، يحضر إليها القواسون ورماة السهام للرياضة والاستجمام. أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص322، 591.
(69) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص322.
(70) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص326.
(71) من التكايا الفقيرة تكية الخواجكان، لضعف أوقافها. وفقراؤها يعيشون على ما يرد لها من النذور. وتكية الأزبك، وهي زاوية صغيرة بلا أوقاف، ويعيش سكانها على لقمة الرضا والكفاف. ومن التكايا الغنية بسبل العيش، تكية الشيخ إبراهيم الكلشني، وهي خانقاه عظيمة ذات أوقاف لا نظير لها في بلاد الترك والعرب والعجم، ونعمه النفيسة مبذولة لجميع المترددين عليه. وتكية قصر العيني كذلك. انظر على الترتيب: أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص325، 326- 327، 330.
(72) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص338.
(73) الطويل، **التصوف في مصر إبان العصر العثماني**، ص226.
(74) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص319.
(75) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص532.
(76) قراميدن: أي الميدان الأسود، وهو الميدان الممتد أسفل سور القلعة بالقاهرة.
(77) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص537.
(78) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص537-538.
(79) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص538-539.
(80) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص581.
(81) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص583-584.
(82) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص584.
(83) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص587.
(84) أبو السعود الجارحي، عارف كثير المجاهدات، ذو أحوال وكرامات مشهورة، قدوة في علمه ودينه. وكان له قبول عند الأكابر، تقف الأمراء بين يديه فلا يأذن لهم بالقعود. عبد الرؤوف المناوي (ت1031هـ/ 1621م)، **الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية**، تحقيق: د. عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، د. ت، ج4، ص29.
(85) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص589.
(86) أوليا جلبي، **سياحتنامه مصر**، ص588.
(87) د. محمد صبري الدالي، **فقهاء وفقراء: اتجاهات فكرية وسياسية في مصر العثمانية**، ، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، 2010م، ص167.